جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث

المنهاج

دورية علمية متخصصة في مخطوطات الإباضية وادي ميزاب وفي وثائقهما الأرشيفية

العدد الأول

محرم 1433هـ / نوفمبر 2011م

الحكم البوسعيدي في زنجبار: نظرة في صياغة إطار جديد للفكر العربي والإسلامي

أ/ أمال غزال

بدايات اهتمامي بالحكم العماني في زنجبار كان عبر جريدة المنار. في قسم الفتاوى أسئلة وردت من زنجبار يجيب عنها صاحب المنار الشيخ رشيد رضا. فالفتاوى تلك حلقة وصل بين شرق إفريقيا والحركة الإصلاحية المتمركزة في مصر. وبالنسبة للمؤرخين الذين لا يحبذون دراسة التاريخ الفكري ضمن أطر إقليمية مثل "الشرق الأوسط" أو "إفريقيا"، فان الصحف ومحتوياتها، من فتاوى وغيرها، هي أكبر دليل على فشل تلك الأطر في الدراسات التاريخية في إلقاء الضوء على ديناميكية الفكر الاسلامي والتفاعل بين أفراد ومجموعات لا تعتبر بالضرورة أن انتماءها وهويتها محدد أو مقيد بأطر جغرافية معينة. من صفحات المنار بدأت رحلتي في معرفة الحياة الفكرية في زنجبار من أواخر القرن التاسع عشر إلى فترة ما بين الحربين العالميتين وسبر غور الهوية السياسية والفكرية للجزيرة كما كانت تعبر عنها النخبة العمانية من سياسيين ومفكرين وعلماء.

أول خطوة لرسم صورة هذه الهوية كانت زيارة لوزارة التراث والثقافة في عمان حيث يوجد نسخة مصورة من الأرشيف الزنجباري في ما يتعلق بالحكم البوسعيدي في الجزيرة. في ذاك الأرشيف مراسلات بين سلاطين زنجبار وعلماء وكتاب ومحرري صحف من سوريا، مصر، وادي ميزاب، استنبول وغيرها. لهذا النوع من الوثائق ميزتان خاصتان. فهي أولا ترصد حركة التواصل الفكري بين الجزيرة والعالم الخارجي، وثانيا تحدد المواضيع التي كانت في صلب هذا التواصل وكانت قيد البحث والاهتمام من قبل الطرفين.

فحوى تلك المراسلات تعكس مقاماً مرموقاً لزنجبار عند المفكرين والأدباء

والصحفيين العرب الموجودين في مراكز الثقل الفكري في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فمثالا على ذلك المراسلات بين الشيخ رشيد رضا وبشير بن فتح الله مدير العروة الوثقى من جهة والسلطان حمود من جهة أخرى[234]. بالإضافة إلى ما تشير إليه الرسائل من توفر تلك الجرائد في زنجبار واطلاع سكانها العرب على محتوياتها فهي أيضا تشير إلى ثقة محرريها في تبني سلطان زنجبار للمشروع الإصلاحي لتلك الجرائد وأملهم به في دعم تلك الجرائد. بالإضافة إلى المنار والعروة الوثقى كان هناك جريدة *طرابلس الشام* لصاحبها الشيخ حسين الجسر والتي كان لها اهتمام خاص بزنجبار والحكم البوسعيدي هناك. ويعد الشيخ الجسر أيضاً من مناصري الحركة الإصلاحية. أحد الكتاب في الجريدة، حكمت شريف، أصدر سلسلة مقالات عن زنجبار سنة 1900[235] وضعها لاحقا في كتاب عنوانه *كتاب تاريخ زنجبار*. ويتميز هذا الكتاب بأنه التأريخ الأول باللغة العربية للحكم البوسعيدي في الجزيرة ولو أن فيه الكثير من المعلومات منتقاة مباشرة من كتابات الرحالتين هنري ستانلي وريتشارد بورتون. ولكن يتضح من محتوى الكتاب أن الجزيرة كانت في عمق الوعي العربي الإسلامي في وقت كانت تتبلور فيه ايديولوجيات حديثة حول هوية الانتماء كفكرة العروبة أو فكرة الجامعة الإسلامية. ولا شك أنه كان لزنجبار نصيب كبير في تلك الخريطة الفكرية. فكاتب تاريخ زنجبار يصفها بأنها "أصبحت مطمحاً لأنظار الكثيرين من المؤرخين في جميع الأقطار بالنسبة لما أضحت عليه من التقدم والنجاح في رهان الحضارة والعمران...".[236] ويتمنى الكاتب أن يكون السلطان حمود "قدوة لمن يريد أن يدفع عن بلاده غوائل الممالك الغربية من حكام الشرق."[237] وهذا التمني يأتي في إطار أمل الكاتب بدوام النهضة الشرقية التي يعتبر لزنجبار حصة بها ومساهمة فيها.

موقع زنجبار المرموق أتى بقطب آخر من أقطاب الحركة الإصلاحية إليها وهو

234 الأرشيف الوطني في زنجبار 27/AA5، أكتوبر 3، 1901.

235 جريدة طرابلس الشام، مجلد 344 الى 383، 1900.

236 حكمت شريف، *كتاب تاريخ زنجبار*، ص 5

237 المصدر السابق، 5و 6

عبد الرحمن الكواكبي. والمعلومات القليلة المتوفرة عن هذه الرحلة وردت في مصدرين: إشارة الكواكبي إلى هذه الرحلة في مقال له في المنار يعلق به على مسألة الرق وإلغائه[238] ورسالة بعث بها لعائلته وطلب من أفرادها أن لا يبوحوا بمكان وجوده إلا لبعض المقربين.[239] مرمى الزيارة غير واضح ولكن الأرجح أنها كانت ممولة من قبل خديوي مصر عباس الثاني. من المحتمل أن هدف الرحلة كان سياسياً إذ كان من المعروف عن الخديوي عداءه لبريطانيا وميله لفكرة الجامعة الإسلامية. ولربما هدف الكواكبي من وراء تلك الزيارة إلى تشديد أواصر اللحمة بين مسلمي شرق إفريقيا والمشرق العربي. على كل حال يبقى تحليل هدف الزيارة رهن الافتراضات لعدم توفر المصادر الكافية لتحليله.

رواد الحركة الإصلاحية الدينيه لم يكونوا منفردين بهذا الاهتمام بالحكم العربي في زنجبار. جرجي زيدان، أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة، كان على اتصال دائم بالسلطان حمود وبعده ابنه السلطان علي اللذين ما فتئا يقدمان الدعم المادي والمعنوي لزيدان ولأعماله. أما زنجبار بالنسبة لزيدان فكانت امتدادا للمشرق العربي ورمزاً للبطولات العربية التي كتب عنها زيدان الكثير و رمزاً للنهضة العربية الحديثة التي أفرغ زيدان الجهد الكثير في مناصرتها. وهذا ربما يفسر اهتمام الشيخ ناصر اللمكي في إرسال مقال إلى مجلة الهلال التي كان يديرها زيدان وفي المقال ملخص لمآثر حميد المرجبي المعروف باسم تيبو تيب والمسمى في المقال ب "فاتح الكونغو". وفي المقدمة التي كتبها زيدان للمقال المرسَل وصف للمرجبي كنابغة من نوابغ أهل الشرق الذين "يأتون بمعجزات السياسة والدهاء والقيادة..."[240] هذا الوصف لم يكن وصفا عابرا إنما دليل على اعتبار زنجبار في عمق الوعي الشرقي-العربي حينها لدى أديب كزيدان الذي أخذ على عاتقه مسؤولية إبراز هوية زنجبار العربية لقرائه ودورها في النهضة العربية الحديثة.

---

238 *المنار* مجلد 8، سنة 1905، ص. 854-860.

239 محمج جميل طحان (محقق). *الأعمال الكاملة للكواكبي* (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995): 548-549).

240 ناصر بن سليمان اللمكي، "أشهر الحوادث وأعظم الرجال: حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو،" *الهلال* 19 (يوليو 1906): 571-580.

اهتمام سلاطين زنجبار بالنهضة العربية ومساهمتهم في دعمها لم يأخذ حقه من الاهتمام والدراسة بعد ويبقى دورهم مغفلاً لدى باحثي عصر النهضة. وكمثال على هذا الاهتمام يكفي أن نقول إن عملاً بمقام قاموس *نجعة الرائد* لإبراهيم اليازجي تم طبعه على نفقة السلطان علي[241]. ليس إذن من العجب أو من باب الصدفة أن نجد في الأرشيف الوطني في زنجبار أشعارا عدة أرسلها كتاب عرب من المشرق إلى سلاطين زنجبار تمجد عطاءاتهم وحكمهم في زنجبار ورسائل تطلب مناصرتهم ومساعدتهم لعدة مشاريع ثقافية وأدبية.

كذلك المراسلات الموجودة في الأرشيف تشير إلى ارتباطات وثيقة باستنبول عاصمة السلطنة العثمانية آنذاك. وهذا أمر لا يستهجن البتة إذ إن سياسة "الجامعة الإسلامية" التي روج لها واتبعها السلطان عبد الحميد الثاني كان لها الأثر القوي في شرق إفريقيا وهذا ما تعبر عنه بوضوح وثائق الأرشيف البريطاني التي تتحدث عن مدى خشية المسؤولين البريطانيين من تأثير هذه السياسة على مسلمي شرق إفريقيا خاصة وأن الإدارة البريطانية كانت على اقتناع تام بأن ولاء عرب ومسلمي شرق إفريقيا هو للدولة العثمانية وليس للإدارة الاستعمارية. وطبيعة هذه العلاقة بين زنجبار واسطنبول يجب أن تدرس من زاويتين: الأولى هي الاهتمام الذي أولاه السلطان العثماني لفكرة الجامعة الإسلامية كرد على النفوذ الأوروبي والانتشار الاستعماري والثانية هي محاولات السلطان علي بن حمود وضع حد للنفوذ البريطاني في الجزيرة ومحاولة إضفاء طابع من الاستقلالية على الحكومة العربية في الجزيرة. فأرشيف الحكومة البريطانية يؤكد أن السلطان علي كان يعمل جاهدا لاتخاذ قرارات مستقلة بالرغم من الضغط والمعارضة الشديدين من المقيم العام البريطاني.[242] فبالنسبة للسلطان علي فإن تشديد أواصر الارتباط بينه وبين الدولة العثمانية كان نوعا من المقاومة، المعنوية على الأقل، للاحتلال البريطاني (وكلمة محمية بريطانية للتعبير عن طبيعة الوجود البريطاني في الجزيرة لا يمنع من

---

241 مخطوط "رسائل إبراهيم اليازجي"، مكتبة يافت، الجامعة الأميركية في بيروت، مخطوط رقم 1365.

242 الأرشيف الوطني،

تعريف ذاك الوجود بأنه احتلال) وللتأكيد بأن لزنجبار امتدادا سياسيا وفكريا يحاول السلطان الاستعانة به كنوع من الردع وكتأكيد على هوية الجزيرة كجزء من العالم العربي والإسلامي وكموقع معارض للنفوذ والاستعمار البريطاني.

الأرشيف البريطاني بطبيعة الحال يحتوي على وثائق مهمة من ناحية تاريخ الحكم البوسعيدي في زنجبار وهو يعطي صورة واضحة عن الجو السياسي والاقتصادي في الجزيرة وكذلك يلقي الضوء على آليات الحكم والعلاقة بين القوة البريطانية والمجتمع الزنجباري. ولكن لا يقدم الكثير من حيث دراسة التاريخ الفكري بشكل مباشر وإنما يأتي مكملاً لصورة الوضع السياسي والثقافي في زنجبار من حيث تأثره وتأثيره على حركات الإصلاح والنهضة الساعية للم شمل العرب والمسلمين والوقوف في وجه المد الاستعماري وما سببه من خلل في التركيبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد الإسلامية.

أنتقل هنا للحديث مجدداً عن دور الصحافة في إطار محاولتي رصد المصادر المتعددة للبحث في الحالة الفكرية والسياسية في الجزيرة. ففي مسقط تعرفت أيضاً على جريدة النجاح الزنجبارية. لم يكن بالإمكان إيجاد أكثر من عدد واحد منها ولكن كان كافياً لتكوين فكرة عن توجه الجريدة واهتماماتها. فهي وإن كانت مهتمة بالأوضاع الزراعية والاقتصادية والسياسية في زنجبار إلا أنها تبنت فكرة "الجامعة الإسلامية" ووقفت إلى جانب الدولة العثمانية في صراعها مع القوى الأوروبية. وهناك دلائل في العدد المتوفر من الجريدة على أن *النجاح* كانت تنقل أخبار حرب طرابلس بين العثمانيين والإيطاليين وتبرز مآثر الجيش العثماني في ميادين القتال.[243] أحد مؤسسي ومحرري النجاح كان الشيخ ناصر البهلاني. ومراسلاته مع عمان وخاصة مع الإمام سالم بن راشد الخروصي تعود وتؤكد دفاعه لا بل اهتمامه بهذه "الجامعة". ففي رسالة إلى الإمام الخروصي، يشير عليه بمصادقة أمير نجد وأمراء الساحل على الخليج الفارسي وبمكاتبة سليمان الباروني كونه عضواً في مجلس الأعيان في اسطنبول لأن "في مكاتبة هذا الرجل والتعرف إليه وإلى

---

243 *النجاح، العدد 8*، حادي محرم سنة 1330 الموافق 22 ديسمبر سنة 1911، ص 4.

الدولة العثمانية بواسطته سياسة معتبرة النفع عظيمة الفائدة."[244] ثم يكمل النصيحة بأ يتم التواصل مع الجمعيات الإسلامية في الهند لأن أقل ما في هذا الأمر هو "إشاعة دعو المسلمين في الممالك الإسلامية والإظهار مع أعدائنا الكفرة أن أهل الإسلام قد ارتبط بعضهم ببعض وجمعتهم الجامعة الإسلامية عواطف الإخاء الإيماني والوئام الملي..."[245] وربما كانت *النجاح* كمشروع محاولة لنقل فكرة جريدة *المنار* إلى زنجبار والقائمة على تبني فكرة الوحدة الإسلامية ومناصرة قضايا المسلمين.

بالإضافة إلى الشرق العربي ومركز الخلافة، كانت هناك بطبيعة الحال صلات للجزيرة مع المجتمعات الإباضية في كل من عمان والجزائر. وقد شكلت المجتمعات الثلاث مثلث تواصل لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. فبالنسبة لعمان، فإن انقسام الدولة البوسعيدية سنة 1862 رسمياً إلى دولتين منفصلتين لم يفصم العرى بين الشقين و لم يحل دون إبقاء قنوات التواصل بينهما. بل أكثر من ذلك فإن التطورات السياسية التي حصلت داخل عمان بعد سنة 1862 لا يمكن تحليلها من دون إلقاء الضوء على خلفية هذه الروابط وتأثير الانفصال على مجريات الأحداث في عمان. فواقع الانفصال الذي فرضته بريطانيا كان ضربة قاصمة للدولة العمانية إذ أثبتت ضعفها أمام الامتداد الاستعماري البريطاني وهيمنته السياسية والاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي وهذا بدوره أدى إلى اضطرابات سياسية واقتصادية داخل عمان عبرت عنها أحداث النهضة العمانية بشكل جلي بين سنتي 1869 و1871. وليس من العجب أن يكون من أهداف تلك النهضة إعادة الاتحاد بين شقي الدولة السابقة وهي محاولات باءت بالفشل وإن كان لها مناصروها في عمان وزنجبار. وإن خفتت الأصوات الداعية لإعادة الوحدة تدريجيا إلا أن الارتباط الفكري بين عمان وزنجبار لم يتزعزع أبداً. ومع بدء حركة النهضة الثانية في عمان استمر هذا التفاعل الفكري وأصبح نواته الشيخ نور الدين

---

244 ناصر بن عديّم الرواحي، "كتاب ورد من زنجبار من أبي مسلم ناصر بن سالم بن عديم الرواحي إلى إمام المسلمين بعمان سالم بن راشد بن سليمان الخروصي أعزه الله" (وزارة التراث والثقافة، مسقط)، 7–9.

245 ص. 16.

السالمي وأقطاب حركته. وخير دليل على ذلك الفتاوى العديدة التي كان يرسلها الشيخ السالمي إلى مسائليه في زنجبار والدعم المادي والمعنوي الذي كانت تتمتع به حركته في بعض أوساط عمانية في زنجبار. وحركة النهضة التي ترأسها الشيخ السالمي لم تهدف هذه المرة لإعادة الوحدة بين عمان وزنجبار بل كان همها الأساسي إقامة نظام مستقل قادر على الوقوف في وجه الاستعمار البريطاني ونفوذه في المنطقة وإعادة نوع من الاستقلالية وسيادة القرار لمسقط. وهذه العلاقة مع عمان يمكن تحليلها عبر وثائق خاصة، كتب السير والتاريخ وكذلك الفتاوى التي تفوق رمزيتها مجرد سؤال وجواب إذ تعتبر من أهم النوافذ إلى تحليل أمور اجتماعية وفكرية. وأخص هنا بالذكر فتاوى الشيخ السالمي وعلى رأسها ما ورد في رسالته *بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود*[246].

أما تواصل زنجبار مع المجتمع الميزابي فتشير إليه دلائل عديدة منها المراسلات بين الشيخ امحمد اطفيش وسلاطين زنجبار. محتوى هذه المراسلات غالباً ما يتعلق بكتب الشيخ اطفيش التي كانت متداولة في عمان وزنجبار ولها قراؤها العديدون. بالإضافة لاهتمام واسع بكتب القطب كان للقطب مكانة مرموقة لدى السلاطين وكان لا يتورع عن إسداء النصيحة لهم أوطلب دعمهم في نشر كتبه. فمراسلاته مع السلاطين برغش وحمود وعلي دليل على علو مقامه لديهم وعلى اهتمامهم بعلمه ومحاولتهم الإسهام في نشره. وكدليل على هذه العلاقة بين الطرفين فها هو الشيخ اطفيش مثلا يقول في السلطان حمود وفي زنجبار الآتي:

حمــودنا ابــن محمد وشيعته ظـــل البرية والحــــق شريعته
وزنجبار مقام الشمس في شرف ومختشى الروم في الغرب وفيعته[247]

ولم تكن العلاقة مع زنجبار مقتصرة على السلاطين. فقراء وطلاب الشيخ اطفيش

246 نور الدين السالمي، *بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود*. (1910).

247 امحمد اطفيش، *ديوان الشيخ اطفيش*، جمعية الشيخ إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، غرداية، الجزائر.

كانوا كثراً ومراسلاته معهم وفتاواه لهم وفيرة إذ شكل حينها الشيخ اطفيش مع الشيخ السالمي قطبي الإفتاء والعلم الإباضيين. فبالإضافة إلى المراسلات بينه وبين قارئيه وتابعيه والتي توضح هذا التفاعل الفكري في ما أسميه بالمثلث الإباضي حينها (زنجبار، عمان ووادي ميزاب) فإن محتوى كتاب *كشف الكرب* خير دليل على مقام الشيخ اطفيش لدى المجتمع الإباضي في زنجبار.

ولكن لا ينظر إلى هذا المثلث الفكري وديناميكية التواصل بين أطرافه بمعزل عن تواصله مع دائرة أوسع تعيدنا إلى ما ذكرناه سابقاً عن أهمية الارتباطات بين زنجبار وحركات الإصلاح الديني والثقافي في المشرق العربي يرادفها اهتمام مماثل من قبل جميع أطراف هذا المثلث. فاهتمام سلاطين زنجبار والنخبة العمانية المثقفة في حركات الإصلاح والنهضة يقابله اهتمام مماثل للشيخ اطفيش في حركات الإصلاح في المشرق أيضاً. والدليل على ذلك ليس فقط مراسلات الشيخ مع السلطان عبد الحميد، خاصة تلك التي سعى من خلالها لتبرئة ساحة الشيخ الباروني الذي اتهم حينها بمعاداة السلطان عبد الحميد والطلب من السلطان العفو عنه،[248] وإنما أيضاً إطراؤه بالشيخ محمد عبده وحركته الإصلاحية. وهناك إشارات إلى هذا الأمر في كتابه *إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائري*.[249] وبدوره الشيخ اطفيش كان معروفاً في أوساط الإصلاحيين في المشرق فتصفه *المنار* في تقريظ *الذهب الخالص* ب"أكبر علماء الإباضية وأشهرهم في هذا العصر."[250] هذا بالإضافة إلى استيائه العميق مما كان يحل بالمسلمين في صراعهم مع الدول المستعمِرة. فمثلا يعتذر الشيخ اطفيش عن البحث في مسألة رفعها إليه أحد مراسليه مجيباً أن قلبه "مشتت بفتن الناس في البلاد وبطرابلس المغرب يقاتلها أهل روما وبالمغرب الأقصى تغلب عليها نصارى أندلس وفرنسيسية وكادت روحي تخرج بذلك..."[251]

---

248 امحمد اطفيش، من *رسائل وأجوبة القطب*، جمعية الشيخ إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، غرداية، الجزائر.

249 امحمد اطفيش، *رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائري*، (من دون تاريخ)

250 *المنار*، ج 8 م 26، 1905، ص 940.

251 امحمد اطفيش، *كشف الكرب* (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1985)، ج 2،

والشيخ السالمي لم يكن بعيداً عن تلك التطورات وكان متابعاً لبعضها كما نلمس من خلال رده على سؤال لسليمان الباروني حين كان الأخير عضواً بمجلس الأعيان العثماني. يقول الباروني:

المرجو من حضرتكم –أيها الأستاذ– الذي سنعتمد على أقواله وأقوال أمثاله ممن يمسك بالمذهب المحترم إمعان المقالة المحررة تحت عنوان الجامعة الإسلامية في جريدة الأسد الإسلامي الآتية إليكم مع هذا....

– هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينها؟

الجواب: قد نظرنا في الجامعة الإسلامية، فإذا فيها كشف الغطاء عن حقيقة الواقع فلله؟؟ ذلك الفكر المبدي لتلك الحقائق. نعم نوافق على أن منشأ التشتت هو اختلاف المذاهب، وتشعب الآراء، وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة كما اقتضاه نظرك الواسع في بيان الجامعة الإسلامية.[252]

فها هو السالمي ليس فقط ملماً بكل هذه التطورات الفكرية والسياسية التي تحث المسلمين على نبذ الاختلاف والتوجه نحو ايديولوجية الوحدة والتضامن بل يقف مناصراً له.

العبرة ليست فقط في توضيح مصادر الكشف عن الحياة الفكرية ودراسة فحوى هذه المراسلات والارتباطات بين زنجبار والمشرق والمغرب. فقراءة شاملة للموضوع وربط خيوط التواصل فيما بينها تبرز تحولات فكرية داخل المجتمع الإباضي وبلورة انتماء يتجاوز جغرافيا معينة أو هوية مذهبية خاصة. فالمجتمعات الإباضية لم تكن فقط على صلة ببعضها البعض وإنما كانت أيضاً في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تبلور ديناميكية في تلك العلاقات ممكن تسميتها ب "الجامعة الإباضية" على غرار "الجامعة الإسلامية". ولكن الأولى لم تكن بمنأى عن الثانية وإنما أيضاً على ارتباط بها إن لم نقل أيضاً بحالة اندماج معها. هذه الصورة تصبح أكثر وضوحاً عندما نحلل التغييرات الفكرية

ص. 207.

252 محمد السالمي، *نهضة الأعيان بحرية عمان* (بيروت: دار الجيل، 1998): 92–93.

التي برزت حينها فيما يتعلق بمفهوم "الآخر" عند علماء ومفكرين إباضيين وكذلك عند مجموعة من أهل السنة والجماعة تابعة للتيار السلفي الإصلاحي. ففكرة السلفية حينها كانت مبنية على فكرة الوحدة بين المسلمين ونبذ الخلافات مما أفسح الطريق أمام ليس فقط حواراً بين الفرق بل أيضا محاولات ناجحة للقفز فوق الخلافات التاريخية وتهميشها في سبيل وحدة ولحمة في زمن اعتبرت فيه هذه الوحدة أمرا مصيريا. وهكذا فإن ما كان من هوة بين الفرقتين كان يتم ردمه وكانت جسور التواصل تبنى من جانب الطرفين على أسس سلفية مفادها الوحدة والتضامن بين المسلمين.

هذا التشعب الفكري في زنجبار يأتي في إطار التحولات الفكرية السائدة حينها والتي تركت أثرها على الفكر الإباضي الحديث. وأعني هنا بالتحديد اهتمام الكتاب والمفكرين والعلماء الإباضيين بالفكر السلفي الذي أنشأه محمد عبده وجمال الدين الأفغاني من حيث المطالبة باتحاد إسلامي مبني على نبذ الخلافات المذهبية والتوفيق بين المذاهب والفرق. ودراسة دقيقة لكل هذه المراسلات ولمحتوى الصحف نلمس من خلاله نقطة فاصلة في التاريخ الإسلامي إذ فتحت الطريق ليس فقط لحوار بين الفرق في الإسلام وإنما أيضاً لمراجعة بعض القضايا بغية إيجاد ساحة مشتركة أكبر في زمن أصبحت فيه الوحدة بين المسلمين من أهم الأولويات إذ اعتبرت هذه الوحدة ضرورة لا مفر منها. فكل من الشيخ اطفيش والشيخ السالمي والبهلاني أدركوا مغزى هذا الموضوع ولو أنهم حافظوا بشدة على هويتهم الإباضية وانتمائهم للتراث الإباضي إلا أنهم سعوا لجعل تلك الهوية جزءا من مشروع أكبر هو "الجامعة الإسلامية" التي توفر إطار اندماج بين المسلمين.

أما الجيل الإباضي التالي الذي برز بعد الحرب العالمية الأولى فقد اتسم بنبرة وحدوية أقوى وبتبني فكر الحركة السلفية بشكل أعمق التزاماً تعبر عنه بشكل صريح أعمال الشيخ إبراهيم اطفيش وإبراهيم أبي اليقظان وسليمان الباروني. وهذه المتغيرات الفكرية أصبحت متجذرة أكثر بعد الحرب العالمية الأولى إذ إن زوال الخلافة العثمانية ووقوع المشرق العربي، كما كان حال الشمال الإفريقي، تحت الاستعمار الأوروبي زاد من قناعة الكثيرين بضرورة إيجاد نوع من الاتحاد الإسلامي يعوض عن فقدان رمز هذا الاتحاد المتمثل بالدولة العثمانية ويشكل حركة مقاومة عريضة للاستعمار. ومن مفارقات

التاريخ أن سياسة النفي التي اتبعتها سلطات الاحتلال في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر أسهمت في تكريس عملي لخطاب الوحدة الإسلامية إذ قامت الحركات السياسية والدينية في المشرق باحتضان العديد ممن تم نفيهم ونخص بالذكر هنا علماء ومثقفين إباضيين انتهى بهم المطاف، إما مؤقتاً أو بشكل دائم، في المشرق كسليمان الباروني وإبراهيم اطفيش. فسياسة النفي أدت إلى تلقيح فكري بين الإباضيين المقيمين في المشرق وبين الحركة السلفية التي وضع معالمها الأفغاني وعبده وحمل رايتها فيما بعد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب الذي سيتم عرض تفاصيل عن دوره لاحقاً. فحجر أساس هذا التعاون والتوافق بين علماء الإباضية وعلماء المشرق وضعه أقطاب العلم الإباضي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأقطاب السلفية في المشرق ثم ما لبث أن أكمل بنيانه الجيل التالي الذي تتلمذ على أيدي الجيل السابق من قبل الطرفين. ولكن المد الاستعماري في بلاد المسلمين من جهة والانتشار الأوسع للفكر السلفي من جهة أخرى جعل هذا التقارب بعد الحرب العالمية الأولى أمتن وأكثر فعالية.

في مرادف ذلك كان هناك انتشار لفكر قومي عربي/إسلامي يربط فكرة الوطنية بالعروبة التي بدورها كانت تعتبر جزءا من الرابطة الإسلامية. وهذا الفكر الذي اعتبر فكرة الوطنية نواة لفكرة الاتحاد ما بين العرب والمسلمين كان حافزاً آخر لتهميش أو حتى أحياناً إنكار الخلافات بين المذاهب في سبيل لحمة وطنية وقومية لعب الإصلاح الديني دوراً أساسيا في تكوينها. وهنا يجب التنويه بأن فكرة القومية عادة ما ينظر إليها وكأنها معارضة للفكر الديني ولكن الكثيرين من العلماء والمفكرين ذوي الاتجاهات الدينية في أوائل القرن العشرين رحبوا بها وناصروها ما دامت خطوة في سبيل الوحدة والقوة. ومثال على ذلك محب الدين الخطيب السوري الأصل والمقيم منذ ... في مصر وصاحب مجلة الزهراء وجريدة الفتح التي كانت ذائعة الصيت والانتشار. فهو من أعمدة التيار السلفي الإصلاحي في العالم العربي حينها ومنظر أساسي لفكرة قومية عربية دينية. فلم يكن يرى في فكرة القومية أي تعارض مع مشروع الوحدة الإسلامية مادامت الأولى تهدف في النهاية إلى ربط المسلمين بعضهم ببعض. فبالنسبة له فإن القومية المصرية مثلا يجب أن تصب في خانة القومية العربية التي بدورها يجب أن تكون نواة لقومية إسلامية

تلم شمل المسلمين. ولم يكن الخطيب وحده في ذاك الميدان وأكبر دليل على ذلك الكيفية التي تطور بها الفكر القومي في شمال أفريقيا. فالجزائر خير مثال على ذلك حيث كان الفكر القومي لدى الكثير من الكتاب والسياسيين، مالكية أو إباضية، متشبعاً بمفهومي عروبة الجزائر والرابطة الإسلامية. ولم تكن العروبة بمفهومها هنا على نقيض من الهوية الاثنية للبربر وإنما جزء من الهوية الإسلامية للجزائر والتي استمات التيار الإصلاحي الإباضي والمالكي في الدفاع عنها.

هذا الفكر القومي القائم على العروبة والإسلام كان نفسه سائداً في زنجبار كما تبنته وبلورته النخبة العمانية المثقفة والتي عبرت عن أفكارها وآرائها عبر جريدة *الفلق* التي كانت تنشرها الجمعية العربية والتي كان جل أعضائها من العمانيين. و*الفلق* تعتبر المصدر الأساسي لدراسة الحياه الفكرية في زنجبار بعد الحرب العالمية الأولى وبالتحديد لدراسة نشأة وتطور فكرة القومية الزنجبارية. ولا يوجد أي شك أن السياسة البريطانية الداخلية القائمة على التمييز العنصري داخل المجتمع الزنجباري كان لها تأثير على بلورة فكرة القومية الزنجبارية التي سعت النخبة العمانية من خلالها إلى إيجاد إطار قومي يلم شمل المجموعات العرقية المختلفة ويوفر للعمانيين منبراً سياسياً يحاولون من خلاله إيجاد دور سياسي جديد يضع حداً لما آل إليه حالهم السياسي والقيادي في الجزيرة من تدهور. ولكن تلك النخبة لم تكن بعيدة عن التأثير الفكري لمحيطها العربي والإسلامي. *فالفلق* إلى جانب اهتمامها بأمور داخلية تعني المجتمع الزنجباري بكل أطيافه، كانت أيضا تنقل وتحلل أخبار العالم الإسلامي وبالتحديد العالم العربي معتمدة في ذلك على عدد كبير من الصحف العربية المتنوعة المشارب والتيارات. ولكن كان لجريدة *الفتح* لصاحبها ومديرها محب الدين الخطيب علاقة متميزة مع *الفلق* ومع محرريها كما كان لها علاقة متينة مع علماء إباضيين كإبراهيم اطفيش وسليمان الباروني وإبراهيم أبي اليقظان. وكان الخطيب قد أفسح مساحة في *الزهراء* و*الفتح* لأقلام الباروني واطفيش[253] والأهم من ذلك مده يد العون للشيخ أبي إسحاق في تأسيس جريدة *المنهاج* التي صدرت في القاهرة. وعبرالشيخ اطفيش تم التواصل

253 ينظر في *الزهراء*، م 1، أجزاء 1، 6 ، 7 و 10. و*الفتح*، أجزاء 648، 649 و 650.

الدائم مع وادي ميزاب وعلماء الإصلاح هناك وتقديم الدعم لجهود الشيخ أبي اليقظان في تأسيس جرائده التي لعبت دوراً رئيساً في التقريب بين المالكية والإباضية في الجزائر وبلورة فكرة الوطنية الجزائرية المبنية على أسس دينية ذات بعد عروبي. والمتابع لأعداد *الفلق* يرى تأثير *الفتح* بشكل جلي عليها خاصة عبر المقالات المتعلقة بالفكر القومي.

وهوية زنجبار العربيه الإسلامية برزت تحديدا في كيفية تعاطي *الفلق* مع مسألة المنهاج التعليمي في مدارس زنجبار الحكومية. حتى إن إدارة *الفلق* أعلنت أن مسألة التعليم كانت من غرض إنشاء الجريدة[254]. ولهذا شنت *الفلق* حملة على الحكومة متهمة إياها بمسح الهوية العربية لزنجبار عبر تهميش اللغة العربية ومعه تهميش دور العرب في الجزيرة. ومن الخطأ السائد في التأريخ للحكم العماني في زنجبار هو عدم إبراز ما آل إليه دور العرب هناك من تدهور على المستوى الاقتصادي والسياسي. وما زالت الدراسات الأكاديمية تغفل درجة التدهور تلك وتصور النخبة العمانية وكأنها المستفيد من الوجود البريطاني وهذا يعود لطبيعة المصادر التي تم البحث فيها حتى الآن وهي مصادر بريطانية وليست مصادر عربية تنقل وجهة نظر العمانيين أنفسهم. ولكن *الفلق* توضح بشكل جلي ما كان ينتاب المثقفين العمانيين من قلق حول مستقبلهم في زنجبار وحول هوية الجزيرة التي أرادوا أن تبقى عربية إسلامية.

الشكوى لم تكن من السياسات البريطانية فقط ولكن أيضا من استهتار متنفذي وأغنياء الجالية العمانية الذين انتقدهم إدارة تحرير الفلق بشكل مستمر. وعبر الشيخ هاشل المسكري، وهو كان من أكثر كتاب ومحرري *الفلق* جرأة في التعبير عن واقع العرب في الجزيرة وعن آمالهم وشجونهم، عن هذا الاستياء برده على سؤال عن حال العرب والعربية في زنجبار:

س هل في البلاد تعليم ديني كاف؟

ج المعاهد لتعليم الدين غير موجودة ولا يوجد من يرغب في هذا الفن

س هل في البلاد مدارس عربية للعرب؟

---

254 *الفلق*، ابريل 16، 1930.

الدائم مع وادي ميزاب وعلماء الإصلاح هناك وتقديم الدعم لجهود الشيخ أبي اليقظان في تأسيس جرائده التي لعبت دوراً رئيساً في التقريب ين المالكية والإباضية في الجزائر وبلورة فكرة الوطنية الجزائرية المبنية على أسس دينية ذات بعد عروبي. والمتابع لأعداد *الفلق* يرى تأثير *الفتح* بشكل جلي عليها خاصة عبر المقالات المتعلقة بالفكر القومي.

وهوية زنجبار العربيه الإسلامية برزت تحديدا في كيفية تعاطي *الفلق* مع مسألة المنهاج التعليمي في مدارس زنجبار الحكومية. حتى إن إدارة *الفلق* أعلنت أن مسألة التعليم كانت من غرض إنشاء الجريدة[254]. ولهذا شنت *الفلق* حملة على الحكومة متهمة إياها بمسح الهوية العربية لزنجبار عبر تهميش اللغة العربية ومعه تهميش دور العرب في الجزيرة. ومن الخطأ السائد في التأريخ للحكم العماني في زنجبار هو عدم إبراز ما آل إليه دور العرب هناك من تدهور على المستوى الاقتصادي والسياسي. وما زالت الدراسات الأكاديمية تغفل درجة التدهور تلك وتصور النخبة العمانية وكأنها المستفيد من الوجود البريطاني وهذا يعود لطبيعة المصادر التي تم البحث فيها حتى الآن وهي مصادر بريطانية وليست مصادر عربية تنقل وجهة نظر العمانيين أنفسهم. ولكن *الفلق* توضح بشكل جلي ما كان ينتاب المثقفين العمانيين من قلق حول مستقبلهم في زنجبار وحول هوية الجزيرة التي أرادوا أن تبقى عربية إسلامية.

الشكوى لم تكن من السياسات البريطانية فقط ولكن أيضا من استهتار متنفذي وأغنياء الجالية العمانية الذين انتقدتهم إدارة تحرير الفلق بشكل مستمر. وعبر الشيخ هاشل المسكري، وهو كان من أكثر كتاب ومحرري *الفلق* جرأة في التعبير عن واقع العرب في الجزيرة وعن آمالهم وشجونهم، عن هذا الاستياء برده على سؤال عن حال العرب والعربية في زنجبار:

س هل في البلاد تعليم ديني كاف؟

ج المعاهد لتعليم الدين غير موجودة ولا يوجد من يرغب في هذا الفن

س هل في البلاد مدارس عربية للعرب؟

[254] *الفلق*، ... إبريل 16 1930

ج كلا. وطالما طالبنا المقتدرين بإنشاء مدرسة للعرب ورفعنا الأصوات وشهد بذلك ملائكة السماء ومن في الأرض و لم يقدر الله بعد من يقوم بهذه المهمة.[255]

جواب المسكري ممزوج بالحسرة والألم على العرب والعربية إذ حال اللغة كان مرآةً لحال الجالية لا بل مرتبط به بشكل جذري. فلذلك استماتت *الفلق* دفاعاً عن حق العرب في تغيير المنهاج التعليمي وجعل اللغة العربية مادة أساسية فيه ليتم الحفاظ على الإرث العربي وكذلك الهوية العربية لزنجبار.

وكان هناك طلبات عديدة من *الفلق* ومن الجمعية العربية لتحسين مستوى اللغة العربية وكذلك صياغة البرنامج بشكل يبرز البعد العربي والإسلامي للجزيرة. وتتساءل *الفلق* تحت عنوان "التعليم ومشاكله" عن جدوى تدريس التاريخ الأوروبي في حين لا يدرس تاريخ من تعتبرهم *الفلق* أبطال الأمة الزنجبارية كالسيد سعيد بن سلطان والملك موني مكو وناصر الرواحي وتيبو تيب.[256] وكان قبل ذلك قد تم رفع عريضة سنة 1934 لوزير المستعمرات خلال زيارة له لزنجبار تناشده فيها الجمعية العربية تحسين الوضع التعليمي في الجزيرة وإعطاء اللغة العربية أهميتها اللازمة.([257]) والعريضة تذكر بأن عرب زنجبار يبغون أن يبقوا عرباً ولكن السياسات التعليمية تحاول إلغاء هويتهم وحتى سلخهم عن باقي العرب.[258] فالخوف من ذوبان الهوية العربية لزنجبار كان كبيراً وأكبر منه كان الخوف من فقدان الارتباط بالعالم العربي نتيجة لذلك. فالقومية الزنجبارية كانت قومية محلية قائمة بحد ذاتها ولكنها كانت ذات بعد إقليمي عربي من شأنه أن يثبّت الهوية العربية الإسلامية لزنجبار ويديم عضويتها في المجتمع العربي. ولكن هذه العضوية، بالنسبة للطبقة المثقفة في زنجبار، ممكن أن تتلاشى مع تلاشي العربية، وتلاشي العربية يؤدي

[255] الفلق، السبت 24 ذي الحجة 1356 الموافق 27 فبروري 1938

[256] المصدر السابق، 4 جمادى الآخر 1358 الموافق 22 جلاي 1939.

[257] الأرشيف الوطني (انجلترا)، "A Memorandum by the Arab Association of Zanzibar Addressed to the Right Hon: the Secretary of the State for the Colonies," February 5,1934.CO 61 8/60/15

[258] المصدر السابق ...

حول محور اتفاق واتحاد الأمم العربية جمعاء[260].

وكمرآة لعمقها العربي انشغلت الفلق أيضاً بأحوال المسلمين عامة والعرب خصوصاً وكانت دائمة التعليق على مجريات الأحداث في العالم الإسلامي وخاصة العربي منه. وكان لفلسطين بعد ثورة 1936 حصة الأسد من التعليقات إذ أبقت الفلق قراءها على اطلاع دائم بأحوال فلسطين وما يحدث من تطورات سياسية هناك ومن نشاطات مؤازرة لأهل فلسطين. واعتمدت بذلك على ما كان يورد في الصحف العربية من أنباء تنقلها *الفلق* لقرائها الذين اشتركوا في نشاطات محلية عديدة. هذا بالإضافة إلى النشاطات المستمرة التي أقامها الزنجباريون من عرب وهنود وسواحليون لنصرة أهالي فلسطين.

إذن فبلورة فكرة القومية أو الوطنية الزنجبارية تندرج في إطار التحولات الفكرية العامة التي كانت تلف المنطقة والتي أتت برياحها إلى زنجبار. ومن خلال عرض هذا التواصل بين زنجبار ومراكز فكرية عديدة كانت تعج بأفكار شتى حول وحدة المسلمين والعرب نستطيع أيضاً أن نرصد التحولات الفكرية عند جيل علماء الإباضية الذين كانوا جزءاً أساسياً من حركة نهضوية عامة عنوانها الأساسي الاتحاد والوحدة ورفع سقف العمل المشترك ضد الاستعمار الأوروبي.

ولكن يبقى هنا نقطة أخيرة يجب أن ندركها وهي أن تعدد المصادر لدراسة الحياة الفكرية في زنجبار لا تبرز فقط تعدد صلات الوصل بين زنجبار وتلك المراكز الفكرية وإنما أيضاً تعدد الايديولوجيات والأفكار التي جعلت من الرابطة الدينية أساساً للفكرة القومية بأبعادها الثلاثة: القومية الوطنية والقومية العربية والقومية الإسلامية. وبالمقابل أثرت تلك الأفكار القومية في حسها الوحدوي على الخطاب الديني والحركات الدينية التي أعادت رسم هويتها بسياق لا يبرز الاختلاف بين الفرق والمذاهب بل على العكس من ذلك يحد من لهجة الفرقة ويقوي لهجة التضامن والوحدة.

وننهي القول بأن لفترة الحكم البوسعيدي في زنجبار أهمية ورمزية فكرية وسياسية يجب أن تأخذ حقها من البحث والدراسة من قبل الأكاديميين وأن يعاد تأطير مفهوم

---

260 *الفلق*، السبت 16 صفر 1358 الموافق 8 ابريل 1939.

الفكر العربي الحديث لا بل مفهوم جغرافية العالم العربي الحديث ليشمل زنجبار وفترة الحكم البوسعيدي فيها. من دونهما يبقى تحديدنا للحياة الفكرية في العالم العربي من منتصف القرن التاسع عشر حتى زوال الحكم البوسعيدي عن الجزيرة ناقصاً وكذلك يبقى تحديدنا لجغرافية العالم العربي.

ببليوغرافيا